

مذكرة هربرت صموئيل^(١) إلى الحكومة البريطانية بشأن وضع فلسطين بعد الحرب*

آذار/مارس ١٩١٥

ماذا سيكون عليه مستقبل فلسطين، فيما لو أدت نتائج الحرب إلى تقطيع الإمبراطورية التركية في آسيا ونهايتها؟

(أ) الضم الفرنسي هو من بين الاحتمالات الممكنة التي يجري البحث فيها أغلب الأحيان:

غير أن إقامة دولة أوروبية عظمى على هذا القرب من قناة السويس يشكل تهديدا مستمرا ومخيفا لخطوط المواصلات الجوهرية في الإمبراطورية البريطانية. فالحزام الصحراوي إلى الشرق من القناة برهن على فعاليته كحد استراتيجي ممتاز ضد الأتراك، لكنه لا يكفي للدفاع ضد حملة عسكرية تقوم بتنظيمها دولة غريبة قوية، ويدعمها مد الخط الحديدي من العريش. كما أنه لا يمكننا المضي على أساس الافتراض القائل بأن علاقاتنا الحالية الحسنة مع فرنسا سوف تستمر هكذا أبدا.

إن فرنسا لها مصالح بارزة في شمالي سورية، بينما مصالحها قليلة في فلسطين. فهناك شركة فرنسية تملك الخط الحديدي البالغ طوله ٥٤ ميلا بين يافا والقدس، لكن رءوس الأموال الموظفة فيه صغيرة، ولا يوجد ما يستحق الذكر فيما عدا ذلك. وتوجد مؤسسات رهبانية فرنسية، إنما عدد المقيمين الفرنسيين ضئيل.

يمكن للحماية القديمة التي مارستها فرنسا على المصالح الكاثوليكية في الشرق أن تستمر بفلسطين، إذا كانت الحكومة (الفرنسية) الحاضرة تعلق أهمية عليها، وحتى لو كان زمام

(١) سياسي بريطاني يهودي، أول وزير بريطاني يتبنى الفكرة الصهيونية عام ١٩١٤، وكان أول مندوب سام بريطاني في فلسطين عام ١٩٢٠.

*المصدر: "ملف وثائق فلسطين: مجموعة وثائق وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية، الجزء الأول من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٤٩" (القاهرة: وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٦٩)، ص ١٥٩-١٦٣.

السيطرة على البلاد بأيدي غيرها. وقد ذكر التقرير الوارد حديثا من دائرة الانتيجانس في مصر (في برقية للمعتمد البريطاني بمصر بتاريخ ٧ كانون الثاني "يناير") بأن الضم الفرنسي لن يحظى بترحيب سكان البلاد. ان الممتلكات الفرنسية الشاسعة في أفريقية، وقد تضخمت حديثا بعد ضم مراكش، والاستيلاء بعد هذه الحرب، على القسم الأعظم من سورية، بما فيها بيروت ودمشق، وإعادة امتصاص الالزاس واللورين. كل هذا يكفي للاستثمار بطاقات الشعب الفرنسي، على عدده الثابت، لسنوات عديدة قادمة.

(ب) الاحتمال الثاني أن تترك البلاد بيد تركيه:

لقد فسدت فلسطين تحت حكم الأتراك وأصابتها الآفات. ولم تنتج لمئات من السنين رجالا أو أشياء مفيدة للعالم. سكانها الأصليون غارقون في القذارة بالطرقات والموانئ، الري والصحة العامة مهملة. والدلائل الوحيدة تقريبا على الحيوية الزراعية أو الصناعية لا توجد إلا في المستعمرات اليهودية، وعلى نطاق أصغر في المستعمرات الألمانية. المسئولون الأتراك هم غرباء على البلاد. ولا أثر للسكان الأتراك فيها، أما الحكام (الولاة) الذين يتبعون بعضهم بعضا بتلاحق سريع، فلا هم لهم إلا كمية الأموال التي يعتصرونها من البلاد لإرسالها إلى الأستانة، فلو أمكن الدول الغربية أن تنقذ فلسطين من الأتراك، لكان من واجبهم القيام بذلك على غرار ما فعلت لإنقاذ الولايات الأوروبية التابعة لتركيا. فضلا عن ذلك، إذا كانت سورية الشمالية من نصيب فرنسا والعراق حصاة إنجلترا، فلا سبب هناك لترك فلسطين، مفردة ومعزولة ملكا للأتراك.

(ج) الاحتمال الثالث هو التدويل :

الحكم المدول كان بصورة ثابتة مرحلة انتقالية لشيء آخر. وإذا استمر يصبح مسرحا للدسائس والمؤامرات بين معتمدي الدول الحاكمة، حيث يسعى كل معتمد للحصول على مطلب بالسيطرة النهائية لصالح بلده. وفي هذه الحالة قد يغدو التدويل بمثابة نقطة يتم القفز منها إلى محمية ألمانية كما أن ألمانيا تقوم بنشاط واسع في فلسطين. إذ أنفقت مبالغ لا يستهان بها من المال هناك سعيا وراء زيادة نفوذها. فأسست مصرفا ومستعمرات زراعية ومدارس ومستشفيات، وبعد الحرب، حين تغلق بوجهها إلى حد بعيد السبل إلى الشرق الأقصى ومناطق أخرى من الكرة

الأرضية، ربما عمدت إلى تركيز قسم من طاقاتها على فلسطين. وخلال عشرين عاما قد تصبح "جارة مصر" في تدويلها الظاهري عرضة لتغلغل النفوذ الألماني إلى درجة تستدعي معها بشدة بسط السيطرة الألمانية عليها، وذلك حينما يحصل انهيار في شكل الحكم القائم، أو عندما يجري تعديل جديد لخريطة آسيا الغربية. إن احتمالا من هذا النوع يشكل خطرا لكل من فرنسا في سوريا الشمالية وإنجلترا في مصر. كما أن ممارسة الحكم على البلاد بواسطة لجنة منتدبة تتألف من ممثلي عدة دول تكون كمن يضع البلاد تحت أيدٍ مشلولة. فالخلافات المستمرة لا بد من وقوعها، وسوف تكون نتيجتها ألا يعمل شئ لتطور البلد وتقديم الشعب.

(د) الاحتمال الآخر الذي يقترح غالبا هو إنشاء دولة يهودية تتمتع بالحكم الذاتي في

فلسطين:

مهما تكن حسنات ذلك الاقتراح أو سيئاته فمن المؤكد أن الوقت لم يحن له بعد. أن الزيادة في السكان التي شهدتها فلسطين خلال السنوات الأخيرة يتألف معظمها من المهاجرين اليهود. ويبلغ تعداد المستعمرات الزراعية اليهودية حوالي ١٥ ألف نسمة، وفي القدس بالذات يتكون ثلثا السكان من اليهود. لكنهم لا يزيدون عددا في البلاد كلها عن سدس (٦/١) السكان.

ولو جرت محاولات لوضع المسلمين من الجنس العربي، والبالغ تعدادهم ٥٠٠ أو ٦٠٠ ألف، تحت سلطة حكومة تركز على تأييد ٩٠ أو ١٠٠ ألف من السكان اليهود، فلا تأكيدات هناك بأن هذه الحكومة، حتى ولو أقامتها سلطة الدول الكبرى سوف تتمكن من فرض الطاعة والولاء. وقد يتلاشى حلم الدولة اليهودية المزدهرة والتقدمية، ومعقل المدنية المتألفة اثر سلسلة من النزاعات القذرة مع السكان العرب. وحتى لو تمكنت دولة بهذا التركيب من النجاح في تحاشي الاضطراب الداخلي أو قمعه، فمن المشكوك به أن تكون قوية لدرجة تكفيها لحماية نفسها من العدوان الخارجي أو العناصر المشاغبة (الهائجة) المحيطة بها. إن القيام بمحاولة لتحقيق أمنية الدولة اليهودية قبل أن يحين موعدها بقرن من الزمن قد يؤخر تحقيقها الفعلي لقرون عديدة أخرى. هذه الاعتبارات مدركة كليا (تماما) لدى زعماء الحركة الصهيونية.

(هـ) الاحتمال الأخير هو محمية بريطانية:

إن إنشاء المحمية ضمان لسلامة مصر. صحيح أن فلسطين بيد البريطانيين قد تكون عرضة للهجوم، والاستيلاء عليها قد يجلب معه مسئوليات عسكرية موسعة، لكن الطبيعة الجبلية للبلاد قد تجعل احتلالها صعبا أمام العدو، وفيما يجري النزاع حول هذا الموقع الأمامي، نكتسب مزيدا من الوقت الذي يسمح لنا بزيادة حامية مصر وتعزيز الدفاع. والحدود المشتركة مع جارة أوروبية في لبنان هي مخاطرة أقل كثيرا بالمصالح الحيوية للإمبراطورية البريطانية من الحدود المشتركة عند العريش.

إن مرفأى يافا وحيفا هزيلان، لكنهما قابلان للتحسين فيما لو أنفقت عليهما مبالغ غير ضخمة كما يمكن تحسين أحدهما للأغراض التجارية. فقد كانت حيفا، الواقعة على خليج عكا، نقطة استراتيجية هامة في الماضي. والأمر متروك للخبراء لمعرفة ما إذا يمكن تحويلها، في ظل الأوضاع العصرية إلى قاعدة بحرية جيدة. كما أن حيفا هي أبعد من الإسكندرون عن مضيق الدردنيل، وتبعد الإسكندرون عن المضائق أكثر من الإسكندرية، بنفس المسافة التي تبعتها مالطة تقريبا. فإذا كانت القاعدة على الشواطئ الشرقية للمتوسط أمرا مرغوبا فيه على أسس عامة، وإذا كانت المصاعب السياسية تحول دون الاستيلاء على الإسكندرون، يجدر بنا الالتفات إلى حيفا علها تفي بالمطلوب.

ولأجل استرضاء حساسيات الكنيستين الكاثولوكية والأرثوذكسية سوف يكون ضروريا دون شك إرفاق السيطرة البريطانية بإقامة سلطة خارج أراضي الدولة على الأماكن المقدسة المسيحية ووضع ملكيتها بيد لجنة دولية، يكون فيها لكل من فرنسا (وربما للفاثيكان) نيابة عن الكنيسة الكاثوليكية، وروسيا بالنيابة عن الكنيسة الأرثوذكسية الأصوات القوية. ولا شك أن من المرغوب فيه أيضا إعلان حرمة الأماكن المقدسة الإسلامية، وأن تضم الحكومة المحلية ممثلا أو أكثر عن المسلمين، ليأتي وجودهم بمثابة ضمانة لسلام المصالح الإسلامية والمحافظة عليها.

إن المحمية البريطانية، حسب تقرير دائرة الاستخبارات في مصر المشار إليه آنفا، سوف تلقى ترحيبا لدى نسبة كبيرة من السكان الحاليين، وهناك العديد من الدلائل السابقة على الشعور

نفسه. كما أن الصهيونيين واللاصهيونيين يؤكدان لي بأن ذلك يشكل حلا لمشكلة فلسطين يلقي أكثر الترحيب في أوساط اليهود بسائر أنحاء العالم.

والمأمول أن يمنح الحكم البريطاني تسهيلات للمنظمات اليهودية في شراء الأراضي وإقامة المستعمرات وإنشاء المؤسسات الدينية والتربوية، والتعاون في التطور الاقتصادي للبلاد، وأن تعطى الهجرة اليهودية، بعد ضبطها بعناية فائقة، الأفضلية حتى يتمكن السكان اليهود من مرور الوقت من أن يصبحوا أكثرية مستوطنة في البلاد وبذلك ينالون مقدارا من الحكم الذاتي وفقا لما تتيحه الظروف القائمة فيما بعد.

إن النمو التدريجي لمتحد يهودي كبير تحت السيادة البريطانية في فلسطين لن يحل بالواقع المشكلة اليهودية في أوروبا.

فالبلاد التي بحجم مقاطعة ويلز، وتؤلف الجبال الجرداء قسما كبيرا منها، كما تنعدم المياه في قسم آخر، لا يمكنها استيعاب ٩ ملايين نسمة. لكنها قد تستوعب مع الوقت ٣ ملايين نسمة، مما يؤدي إلى تخفيف الضغط في روسيا وأماكن غيرها. والأهم من ذلك بكثير هو الأثر الذي يتركه على طبيعة القسم الأكبر من العنصر اليهودي، الذي يتحتم عليه البقاء في اختلاط مع الشعوب الأخرى، وهل سيكون ذلك قوة أو ضعفا بالنسبة للبلدان التي يقيمون فيها. فلينشأ مركز يهودي بفلسطين، ولندعه يحقق، كما قد يحقق بالفعل، مقدارا من العظمة الروحية والفكرية، وسوف يؤدي ذلك بصورة غافلة إلى رفع معنويات الفرد اليهودي حيثما وجد. إن الترابطات الدنيئة التي لصقت بالاسم اليهودي قد تنسلخ عنه إلى حد ما، وتتعرز قيمة اليهود كعنصر فعال في مدنية الشعوب الأوروبية.

إن السبيل الذي ندعو إلى اتخاذه سوف يعود على إنجلترا بعرفان الجميل بين اليهود في سائر أنحاء العالم. ففي الولايات المتحدة، حيث يبلغ تعدادهم حوالي مليوني نسمة، وفي جميع البلدان الأخرى التي ينتشرون فيها، قد يؤلفون كتلة للرأي يعود تحيزها حيث لا تدخل مصلحة البلد الذي كانوا مواطنين فيه، لخير الإمبراطورية البريطانية. وكما استطاعت سياسة إنجلترا الحكيمة تجاه اليونان في القسم الأول من القرن التاسع عشر وحيال إيطاليا في منتصف القرن

التاسع عشر أن تضمن لهذه البلاد النوايا الطيبة لكل من اليونانيين والإيطاليين حيثما وجدوا ومنذ ذلك الحين، فإن المساعدة التي يجري تقديمها الآن في سبيل تحقيق المنال الذي لم تتوقف أعداد كبيرة من اليهود أبداً على التعلق به خلال قرون عديدة من العذاب لن تفضل، مستقبلاً بعيد جداً، في ضمان عرفان الجميل لدى عرق بأكمله كما أن نواياه الطيبة لن تكون عديمة القيمة في الزمن الآتي.

إن الإمبراطورية البريطانية، باتساعها وازدهارها الحاضر، ليس لديها بعد ما تضيفه إلى عظمتها. لكن فلسطين، على صغر مساحتها تنتفخ ضخمة في مخيلة العالم، حتى أن كل إمبراطورية، مهما كانت عظيمة، قد ترفع من مكانتها ومركزها بامتلاكها لها. إن ضم فلسطين إلى الإمبراطورية البريطانية سوف يزيد حتى في لمعان التاج البريطاني. ويشكل جانباً شديداً القوة لشعب المملكة المتحدة والممتلكات المستقلة خصوصاً إذا ظهر كوسيلة معلنة لمساعدة اليهود على احتلال البلاد من جديد. هناك عطف واسع الانتشار وعميق الجذور في العالم البروتستانتية على فكرة إرجاع الشعب العبراني إلى الأرض التي أعطيت ميراثاً له، وهناك اهتمام شديد بتحقيق النبؤات التي توقعت ذلك مسبقاً. إن افتداء الأماكن المقدسة المسيحية أيضاً وتخليصها من الابتذال التي تخضع له الآن، وفتح أبواب الأراضي المقدسة بسهولة أكثر من السابق أمام زيارات المسافرين المسيحيين سوف يزيد من إغراء هذه السياسة للشعوب البريطانية. وقد لا تكون هناك على الأرجح نتيجة أخرى للحرب تستطيع إعطاء مقدار أكبر من الرضا لقطاعات قوية من الرأي البريطاني.

فالأهمية التي يعلقها الرأي البريطاني على هذا الضم قد تساعد على تسهيل الوصول إلى حل حكيم لمشكلة أخرى من المشاكل التي سوف تنتج عن الحرب. ومع أن بريطانيا العظمى لم تدخل في النزاع سعياً وراء أي غرض في التوسع الإقليمي، فإن خوضنا الحرب وقيامنا بتضحيات هائلة قد يولد خيبة أمل بعيدة الغور في البلاد فيما لو جاءت النتيجة تضمن فوائد عظيمة لحلفائنا ولا شيء لأنفسنا. غير أن تجريد ألمانيا من مستعمراتها لصالح إنجلترا قد يترك شعوراً دائماً بالمرارة الشديدة لدى الشعب الألماني، ويجعل بالتالي انتهاج سياسة من هذا النوع عملاً أخرق وغير حكيم. علينا أن نعيش في عالم واحد مع سبعين مليوناً من الألمان، ويجب التنبيه إلى إعطاء

أقل ما نستطيعه من المبررات كي لا نجر علينا خلال عشر سنوات، أو عشرين أو ثلاثين سنة من تاريخه حرباً تأريية ألمانية. هناك قسم من المستعمرات الألمانية يجب الاحتفاظ به دون شك لأسباب استراتيجية أو بفعل مصالح ممتلكاتنا المستقلة. غير أنه إذا استطاعت بريطانيا العظمى أن تحصل على التعويضات التي سوف يطالب بها الرأي العام في كل من العراق وفلسطين وليس في المناطق الألمانية من أفريقيا الشرقية والغربية، فإن هناك أرجحية أقوى للسلام الدائم .

آذار، (مارس)، ١٩١٥

هـ . ص.

مؤسسة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمؤسسة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من إدارة المؤسسة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي:
ipsbrt@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه الوثيقة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx